مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (37) العدد (1)2015
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (37) No. (1) 2015

إشكالية دلالة مصطلح العقلانية في الفلسفة الحديثة

الدكتور منذر شباني *
جانت عبود **

(تاريخ الإيداع 1 / 2 / 2015. قبل للنشر في 26 / 2 / 2015)

□ ملخّص □

يعد مفهوم العقلانية من أوفر المفاهيم الفلسفية حظاً فيما يتعلق بالاختلافات حوله، بل هو أشد المفاهيم عرضه للرفض أو النقد والتحليل، لذا فإن بحثنا محاولة في فض الإشكالية المتعلقة بضبط مصطلح العقلانية كمفهوم يشير إلى دلالات متعددة في حقبة الفلسفة الحديثة، التي تعد التأسيس الحقيقي لما وصل إليه العالم اليوم في كل مناحيه الفكرية والعلمية والاجتماعية.

وتبعاً لهذا السياق الاصطلاحي والمفهومي حاولنا في البحث التركيز على تاريخية مفهوم العقلانية من خلال نشأتها وتطورها كاتجاه في الفكر الأوروبي الحديث، بوصفه الحامل لأولية العقل، منطلقاً من عدة معانٍ متكاملة حيناً ومتناقضة حيناً آخر، ليحمل بذلك دلالات متعددة، تتنوع بتنوع مجال استخدامه، وبشيء من التركيز حاولنا إبراز أهم المعاني التي يقال بها مصطلح العقلانية. علّنا بذلك نساهم في رفع الالتباس الذي لحق به، والذي كان سبباً في غموض المصطلح، وبالتالي سبباً لتشويش فهمنا لفلسفة الحداثة.

الكلمات المفتاحية: العقلانية– الحداثة– الفلسفة الحديثة – الفلسفة الغربية.

*استاذ مساعد – قسم الفلسفة – كلية الآداب جامعة تشرين – اللاذقية– سورية.
**طالبة دراسات عليا (ماجستير) – قسم الفلسفة – كلية الآداب جامعة تشرين – اللاذقية– سورية.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (37) العدد (1)2015
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (37) No. (1) 2015

The Controversy over the Term 'Rationality' in Modern Philosophy

Dr. Monzer shbani*
Janet Abboud**

(Received 1 / 2 / 2015. Accepted 26 / 2 / 2015)

ABSTRACT

Rationality is by far the luckiest philosophical concept in so far as its controversial status is concerned. It is also one of the terms most liable to rejection, criticism and analysis. Hence, our paper is an attempt to unscramble the controversy relating to tuning the term of rationality into a concept that denotes multiple significations in the era of modern philosophy, and which are considered the real foundation of what today's world has reached in its intellectual, scientific and social aspects.

According to this terminological and conceptual context, we have tried in this paper to shed special light on the genealogy of the concept of rationality, its origins and evolution as a trend in modern European thought, given that it is a signifier that denotes the priority of the mind, and which derives from various meanings that are complementary at times, yet contradictory at others, whereby carrying multiple significations, that vary in accordance with its field of use. With a certain degree of special attention, we have also tried to glean some of the most basic meanings associated with the term of rationality. We hope that this way we may be able to clarify the obscurity that engulfs the term, something which has caused its ambiguity, and thus our confused understanding of the philosophy of modernity

Keywords: rationality-modernity- modern philosophy- western philosophy.

*Associate Professor, Philosophy Department ,Faculty of arts And Humanities, Tishreen university, Lattakia , Syria.
**Postgraduate student, Philosophy Department ,Faculty of arts And Humanities, Tishreen university , Lattakia , Syria.

مقدمة:

تعاني بعض المصطلحات في الفلسفة عموماً وفي الفلسفة الحديثة خصوصاً من الغموض في بعض الأحيان، وأحياناً كثيرة تعاني تلك المصطلحات من تعدد المعاني وتعدد الاستخدامات، وهذا ما يزيدها غموضاً، بحيث أن استخدام هذه المصطلحات في أكثر من سياق يجعلها أكثر إبهاماً، ما يجعل من تلك المصطلحات بحد ذاتها مادة للبحث، وهو ما يبدو بالنسبة لنا أمراً مهماً على سبيل إلقاء الضوء على تاريخ تلك المصطلحات وتحديدها منطقياً وابستمولوجياً، وقد جاء اختيارنا لمفهوم العقلانية باعتباره المفهوم الأعمق الذي أقام عليه الفكر الفلسفي الغربي نظرته إلى العالم وهي النظرة التي سعى إلى تعميمها عبر العولة، وهو ما دفعنا إلى التساؤل حول دور التباس مفهوم العقلانية في الأزمات التي يعاني منها عالما المعاصر، بعد أن فشل التطور العلمي والتكنولوجي في تحقيق أهداف الإنسان في النمو والرخاء، وليس ذلك وحسب بل يمكن القول أن الأزمات العالمية والمخاصر المحتملة نتيجة التطور التقني والعلمي تقود الى طريق مسدود دون أن يكلف العالم نفسه عناء البحث عن طرق بديلة للحياة، ومن هنا يكتسب بحثنا مشروعيته كونه يتناول تعدد استخدام مفهوم العقلانية، ويحاول أن يسلط الضوء على دور ذلك في ما نحن عليه اليوم.

أهمية البحث وأهدافه:

ظل مفهوم العقلانية موضوعاً إشكالياً أثار ومازال يثير من النقاشات والخصومات المزيد لدى دعاة الحداثة كما لدى خصومها. وهنا تكمن أهمية تلك المعالجة التي تقترب من تاريخ الفكر أكثر من اقترابها من دراسة تأملات نظرية بحتة منقطعة الصلة عن محيطها الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، هذا المحيط الذي تفاعلت بداخله أفكار الحداثة وأفكار ما بعدها ومازالت هي الموجهة لتيارات الفكر العالمي المعاصر، إنها تكاد تكون صورة نموذجية لمقاربة ارتباط الفكر بالواقع على مدى فترة زمنية كافية للكشف عن ديناميات هذا الارتباط وبالتالي عن عقباته وأزماته الحالية والكيفية التي يتم بها تجاوز تلك المعوقات للانطلاق إلى الآفاق المستقبلية.

منهجية البحث:

سنعمد في هذا البحث إلى استخدام منهج البحث التّحليليّ الذي يقوم على عمليّاتٍ ثلاث: التّفسير، والنّقد، والاستنباط، ومن ثم إعادة تجتمع هذه العمليّاتُ كلّها في سياق واحد بحسب ما تقتضيه طبيعة البحث. حيث يساعدنا التفسير في ضبط المعاني المتعددة التي استخدم بها مصطلح العقلانية في التفكر الغربي، لنقوم بعد ذلك برصد مواطن الخطأ والصواب من خلال تحليل نقدي يساعدنا على استبعاد المعاني الغريبة عن هذا المفهوم، ثم ومن خلال الاستنباط سنسعى إلى بناء رؤية واضحة حول تطور استخدام مفهوم العقلانية وتعدد مستوياته في الفلسفة الحديثة.

أولاً – مفهوم العقلانية، إشكال الدلالة:

بالنظر إلى واقعنا الثقافي المعاصر نلاحظ أن جدلاً حاداً، يُبنى أساساً على اختلاف المواقف من العقلانية، بين معارضاً لها باسم الدين، ومؤيداً لها باسم الحداثة والمعاصرة. لكن ما نلاحظه أيضاً أن لدى كلا الطرفين خلطاً وضحاً في فهم مصطلح العقلانية. ولما كان مصطلح العقلانية منقول إلينا من سياق فكري واجتماعي آخر، فإن هذا يدفعنا إلى التساؤل حول دلالة المفهوم في بيئته الأصلية. وهل اختلافنا في فهم المصطلح ناتج عن تقصير منّا في فهم المصطلح وضبطه؟ أم أنه محل خلاف داخل السياق الذي انتجه نفسه؟

نقطة البدء التي سنتخذها أساساً في مناقشة تعدد دلالة مفهوم العقلانية هو الاختلاف الواضح والاضطراب الكبير التي تبديه معاجم الفلسفة في تحديد هذا المفهوم، ومن المهم الإشارة قبل ذلك إلى أن مفهوم العقلانية قد مرّ بمراحل تطور فيها عبر تاريخ الفلسفة عموماً وصولاً إلى العصر الحديث الذي يمثل محور اهتماماً. ورغم اعتقادنا بأهمية تتبع تطور مفهوم العقلانية عبر تاريخ الفلسفة، إلا أن ذلك يبعدنا عن هدف البحث، وهو التركيز على الدلالات المتعددة لمفهوم العقلانية في الفلسفة الحديثة، فالحديث عن العقلانية الأرسطية مختلف تماماً عن العقلانيات التي حفل بها تاريخ الفلسفة على امتداد ذلك التاريخ، فنحن عندما نتحدث عن عقلانية أرسطو نكون ضمن إطار أو حقل فلسفي مختلف تماما عن العقلانية في العصر الوسيط، أو العقلانية في العصر الحديث. ولذلك نعتقد أن فهم عام وواسع للعقلانية غير ممكن إلا بقدر ما نقترب من الفلاسفة العقلانيين الذين شكلوا من خلال انتاجهم الفلسفي مفهوم العقلانية في العصر الحديث.

وبالعودة إلى التعريفات التي أوردتها القواميس والمعاجم الفلسفية حول موضوع العقلانية، يبرز لدينا التعليق والتعريف الذي أتى عليه لالاند في موسوعته، إذ يشير إلى تعاريف عدّة للعقلانية، يبدأها بتعريف العقلانية بالمعنى الميتافيزيقي فيقول أنها "أي العقلانية": «**هي مذهب يقول بعدم وجود أي شيء بلا سبب، بحيث لا يوجد شيء غير معقول**»[1] ومن هذا التعريف نتلمس أمراً أساسياً وهو أن العقلانية تنطلق من القول بأن شيئاً لا يمكن أن يوجد بدون سبب، وهو أمر يحاول التركيز على العقلانية التي ترفض اعتبار إمكانية أن يكون هناك شيئاً غامضاً على الفكر البشري عموما وعلى التفكير الفلسفي خصوصا، وهذا ما يشير برأينا إلى أن العقلانية جاءت في مرحلة بزوغ الفكر الفلسفي الذي بدأ يرفض التفكير الأسطوري والغيب. ولكن لالاند يعود ليقدم لنا تعريفا آخر، إذا يقول: «**العقلانية مذهب يرى أن كل معرفة يقينية تصدر عن مبادئ لا تقبل الدحض قبلية، بيّنة، تكوّن حصيلتها اللازمة، ولا يمكن للحواس أن تقدم عنها سوى نظرة ملتبسة وظرفية، نظرة عابرة إلى الحقيقة. مثل: ديكارت، سبينوزا، هيغل**»[2]. وفي هذا التعريف يبدو أن لالاند يقدم العقلانية كنظرية في المعرفة، أي أن العقلانية بهذا التعريف تكون معرفة بديهية لا تحتاج إلى برهان، ولا تثق بالحواس. أي أن العقلانية هنا حكر على الفلاسفة الذين عرفوا بالفلاسفة العقلانيين والذين يعدد لالاند بعضهم كما رأينا أي ديكارت وسبينوزا وهيغل، وهذه إشارة الى نظرية المعرفة عند هؤلاء الذين يخصهم لالاند بالذكر.

إلا أن لالاند يعود مرة أخرى ليورد تعريفا للعقلانية، تبدو فيه العقلانية أكثر من مجرد الاعتماد على البديهيات والمبادئ الأولية، يقوم بدمج التجريبية بالعقلانية عندما يقول: «**العقلانية مذهب يرى أن الاختبار غير ممكن إلا لفكر يملك عقلاً، أي منظومة أسس، كلية ومبادئ ضرورية تنظم المعطيات التجريبية.**»[3]. ونلاحظ هنا أن لالاند يخرج العقلانية من كونها نظرية في المعرفة ويذهب بعيداً الى اعتبارها مدخلا ضروريا لكل فكر حتى الفكر التجريبي، وهو ما يعني أن لالاند ينتبه الى دور العقلانية في سياقات فكرية متعددة، وهو يتفق مع ما أشرنا إليه حول غموض المفاهيم بسبب تعدد استخداماتها في سياقات مختلفة ومتعددة، وها هو لالاند بمحاولته تعريف العقلانية يستشعر هذه المشكلة، وتالياً فإنه يعود ليقدم تعريفه الأخير، فيذهب الى القول: بأن العقلانية «**من زاوية المنحى العقلي: هي إيمان بالمنحى**

---

[1] لالاند، أندريه، موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، ط2، 2001، المجلد الثالث، ص 1172.

[2] لالاند، أندريه، موسوعة لالاند الفلسفية، ج3، مرجع سابق، ص 1172.

[3] لالاند، اندريه، موسوعة لالاند الفلسفية، ج3، مرجع سابق، ص 1172.

العقلي في البيّنة والبرهان؛ اعتقاد بفاعلية النور الطبيعي، وبهذا المعنى يتعارض مع اللاعقلانية بكل صورها "صوفية، باطنية، فلسفة الشعور، سلفيّة»[1]. وهذا التعريف كما نعتقد هو محاولة جادة للقول بأن العقلانية هي حقل وحدها ولا يمكن أن تختلط مع الحقول المعرفية الأخرى، وخصوصا تلك التي تتسم بالعرفانية والنزعات الصوفية.

وإمعاناً منه قام لالاند بتقديم تعريف حاول فيه أن يمزج بين العقلانية والتفكير اللاهوتي الذي يقدم نفسه عادة على أنه فكر عقلاني حيث يقول لالاند «**العقلانية بنحو خاص عند اللاهوتيين مذهب يرى أنه لا يجوز الوثوق إلا بالعقل، ولا يجوز التسليم في المذاهب الدينية إلا بما يعترف به العقل بأنه منطقي وكافٍ ووفقا للنور الطبيعي**» [2].

ونلاحظ من هذه التعاريف أن لالاند أراد أن يحيط بمفهوم العقلانية من شتى جوانبه، ومع ذلك فإن لالاند في تعاريفه المذكورة ظل رهين لغموض معنى العقلانية كمصطلح، فهو في تعريفه الأول يربط بين العقلانية والحتمية؛ التي ترى أن كل ما يحدث في الكون يخضع لقانون سببي، والحتمي قد يكون تعددياً أو واحدياً، أو ثنويا، كما قد يكون ملحدا أو تجريبيا أو عقليا أو ماديا أو مثاليا، والحتمي هو من يعتقد ويرى أن لا شيء يحدث إلا وله سبب[3]. وبالتأكيد فإن هناك رابطاً ما بين العقلانية والحتمية، ولكن إمكان اعتبار العقلانية مجرد حتمية أمر غير ممكن، بقدر ما أنه يمكن اعتبار الحتمية مجرد جزء من اللاعقلانية لا كلها، ومن هنا يمكن اعتبار التعريف الذي أورده لالاند والذي يربط العقلانية بالحتمية هو تعريف الى حدّ ما لا يضيء سوى جانبا واحدا من جوانب العقلانية، كما نجد أنه من الهام هنا أن نميز بين الحتمية والجبرية حيث أن الجبرية تعتمد على مفهوم التقرير القبلي لحدوث الحوادث، أي أن كل ما يحدث هو مقدّر وتقرر حدوثه من قبل، أما الحتمية فتعتمد على ترابط الحوادث وعلى إمكانية استنباط حادث ما من حادث سابق وهو سبب لحدوثه. فالجبري يعتمد على مفهوم التقرير المسبق للأحداث، أما الحتمي فهو من يعتقد بأن لكل حادث سببا لحدوثه [4].

أما بالنسبة الى تعريف لالاند الذي يشير فيه إلى علاقة العقلانية بالمعرفة اليقينية التي لا تقبل الدحض، والتي هي معرفة قبلية أي سابقة على التجربة، نرى أن لالاند هنا لا يفعل شيئا سوى أنه يربط بين العقلانية والبداهة أو المعرفة الفطرية السابقة على التجربة، طالما أن المعرفة الفطرية هي كل معرفة موجودة في الذهن منذ الولادة، وتتعلق ببعض الحقائق الأساسية [5]. ونستطيع هنا أن نلاحظ أن تعريف لالاند يقصر مفهوم العقلانية على مجرد المعرفة الفطرية، وهنا أيضاً يضيء لالاند جانبا آخر من جوانب العقلانية، وقد ذكرنا أن لالاند هنا يتحدث عن العقلانية بمعنى نظرية المعرفة، وهذا لا يستوفي مفهوم العقلانية، والأمر نفسه يتكرر في تعريفات لالاند التالية والتي يرى أنها تربط العقلانية بمفهوم القبلية التي هي حصول الفرد على المعرفة بعيدا عن الحواس والتجربة [6]. وأما التعريف الأخير عند لالاند فهو الذي يثير الاهتمام حيث أن لالاند يعارض في هذا التعريف بين الوحي والعقل، أو كما يسميه لالاند النور الطبيعي، وأما سبب أهمية هذه النقطة تحديدا فيأتي من الاعتقاد الذي ساد في القرن السابع عشر والذي كرسه فلاسفة

---

[1] لالاند، أندريه، موسوعة لالاند الفلسفية، ج3، مرجع سابق، ص 1172 –1173.

[2] لالاند، أندريه، موسوعة لالاند الفلسفية، ج3، مرجع سابق، ص 1172.

[3] انظر: زيادة، معن ومجموعة من المؤلفين، الموسوعة الفلسفية العربية، معهد الإنماء العربي، بيروت، 1988، المجلد الثاني، ص 481.

[4] انظر: زيادة، معن ومجموعة من المؤلفين، الموسوعة الفلسفية العربي، مرجع سابق، ج2، ص 483.

[5] انظر: كوتنغهام، جون، العقلانية فلسفة متجددة، ترجمة محمود منقذ الهاشمي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، 1997، ص 20.

[6] انظر: كوتنغهام، جون، العقلانية فلسفة متجددة، مرمع سابق، ص 20.

العقل والعقلانية في هذا القرن وهو ذلك المتعلق بالبحث عن الأسباب والقوانين الطبيعية التي تقف وراء الظواهر عوضا عن الوحي أو اهو غيبي.

لا يقتصر التباس المصطلح على موسوعة لالاند الفلسفية، إذ نقرأ في دليل أكسفورد للفلسفة، عدة تعاريف للعقلانية، نذكر منها: «**العقلانية جانب من جوانب الفاعل المدرك معرفياً يعرضه حين يتبنى معتقدات وفق مبررات مناسبة...العقلانية تنويعة من الرؤى تؤكد دور أو أهمية العقل الذي يتضمن عادة الحدس في مقابل الخبرة الحسية.** » [1] ويتابع دليل أكسفورد في عدة صفحات محاولته لإيضاح معنى العقلانية، عبر تحديد سلبي يقوم على التمييز بينها وبين مصطلح اللاعقلانية، على اعتبار أن العقلانية هي كل ما هو ليس لاعقلاني. ومعلوم في المراتب المنهجية للتعاريف، أن التحديد بالسلب يحتل مرتبة هابطة في السلم المنهجي للتعريف من الناحية المنطقية. واعتقد أن الدليل الفلسفي لم يلجأ إلى نمط التعريف بالسلب إلا لتعذر واستعصاء التحديد المباشر للمفهوم.

أما في الموسوعة الفلسفية المختصرة، فقد وردت العقلانية تحت اسم "المذهب العقلي"، دون تمييز بينهما، ومثل ما تعامل لالاند ودليل أكسفورد مع هذا المصطلح، فإن الموسوعة أيضاً من جهة أعطت تعريفين أحدهما فلسفي والثاني ديني، بينما الثالث عرفته بنقيضه وهو المذهب التجريبي. فبالنسبة للتعريف الفلسفي والمنطقي أوردت هذا التعريف «**هو ما يميز النظرية الفلسفية حين تزعم أنه عن طريق الاستدلال العقلي الخالص، وبغير اللجوء إلى أية مقدمات تجريبية يمكننا أن نصل إلى معرفة جوهرية عن طبيعة العالم**» [2]. أما التعريف الثاني الذي يمثل موقف بعض المتدينين واللاهوتيين فقد أوردته على أنه استعمال معروف حيث تشير هذه الكلمة إلى «**الرأي القائل بأنه لا يجوز الإيمان بخوارق الطبيعة، وأن الدعاوي الدينية ينبغي أن تختبر بمحك عقلي**» [3]. بينما التعريف الثالث فأنها عرفت المذهب العقلي بنقيضه بقوله «**والمذهب العقلي على النقيض من المذهب التجريبي، وهو المذهب القائل بأن التجربة أساس ضروري لمعرفتنا كلها**» [4].

لم يقتصر هذا الخلط على المعاجم المترجمة بل نقرأ كذلك في المعجم الفلسفي لجميل صليبا التمييز بين نمطين من العقلانية سماهما مطلقة ونسبية، ولتحديد البعد الابستمولوجي للعقلانية يقول: «**القول إن المعرفة تنشأ عن المبادئ العقلية القبلية والضرورية لا عن التجارب الحسية، لان هذه التجارب لا تفيد علما كليا". و"القول إن وجود العقل شرط في إمكان التجربة، فلا تكون التجربة ممكنة إلا إذا كان هناك مبادئ عقلية تنظم معطيات الحس". "فإذا عددت هذه المثل وتلك المعاني والصور شرطا ضروريا وكافيا لحصول المعرفة كانت العقلانية مطلقة، وإذا عددتها شرطا ضروريا فقط كانت العقلانية نسبية**» [5]. ومن الملاحظ في هذا التعريف أن العقلانية تقابل التجريبية في حقل نظرية المعرفة، وهذا التقابل هو ما تحرص الأبحاث الكلاسيكية على توكيده. فالتوجه الفلسفي الحسي يعتقد بكون الحواس المصدر الأساس للمعرفة، بينما الفلسفات العقلانية بدءا من أفلاطون وإلى ديكارت ولايبنتز... هي على الرغم من تبايناتها الكثيرة تلتقي في نقد التوجه الفلسفي الحسي والتقليل من القيمة الأبستمولوجية لوظيفة الحواس في تأسيس المعرفة.

---

[1] هوندرتش، تد، دليل أكسفورد للفلسفة، ترجمة نجيب الحصادي، المكتب الوطني للبحث والتطوير، ليبيا، د.ت، الجزء الثاني، ص 596-597

[2] الموسوعة الفلسفية المختصرة ، ترجمة فؤاد كامل وآخرون ، دار القلم بيروت ، لبنان ، د ت ، ص 418

[3] الموسوعة الفلسفية المختصرة ، مرجع سابق ، ص 418

[4] الموسوعة الفلسفية المختصرة ، مرجع سابق ، ص 418

[5] صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982، الجزء الثاني، ص 90.

وبناء على استحضارنا الموجز لأشكال اللبس التي تعرض لها مفهوم العقلانية، نجد من الضرورة أن نقوم بإيضاح وحصر أهم الدلالات، وذلك لأن التحديد الدلالي لمفهوم العقلانية، والوعي بتعدد أنماطها الأبستمولوجية والمذهبية مقدمة لها أولوية منطقية على إنتاج الأحكام، بشأن المصطلح. وهو ما يجب أن يضطلع به البحث الفلسفي. فإذا كان الهدف الأسمى للفلسفة هو بلوغ الحقيقة والوصول إلى المعرفة. فإن ذلك لا يتم إلا بتحديد دقيق للمفاهيم التي تتناولها. فالموضوعات الحقيقية للمعرفة لا بد أن تكون متصفةً بالثبات لا التغير، والمطلقيّة لا النسبيّة، أو بحسب المعيار الديكارتي (الوضوح والتميّز) [1]. وبالتالي يمكن حصر مفهوم العقلانية وفق ثلاث دلالات أساسية، في حين يمكن عدّ الدلالات الأخرى تنويعات وحالات خاصة لهذه الدلالات الثلاث، وهي:

ثانياً- العقلانية بمعنى نظرية المعرفة:

ترتبط العقلانية في السياق الثقافي الغربي بالمشروع الحداثي على نحو وثيق. إذ من المعلوم أن الحداثة تتأسس على محورية وأولوية العقل بوصفه ذاتا مفكرة، أو ما يعرف بالكوجيتو، الذي وضعه ديكارت كمرجعية إبستمولوجية للحقيقة ومصدرا لها ومعيارا لقياسها [2]. من هنا كانت الحداثة من حيث أساسها المعرفي عقلانية. وبالتالي غالباً ما يطرح إشكال الحداثة مرتبطاً ومقترناً بإشكال العقلانية. فيحرص المدافعون عن المشروع الحداثي على تصوير الرافض له رافضاً للعقلانية وما يرتبط بها من قيم. لكن كما رأينا سابقاً فالعقلانية الحديثة لا تشير إلى دلالة واحدة، وبالتالي لا مجال للحديث عن معنى واحد يختصر مفهوم العقلانية في نموذج أو نمط معرفي معين، بحيث يمكن القول إن العقلانية إطار نظري يقبل دلالات متعددة تصطبغ بالسياق الثقافي الذي تصدر عنه.

ومن هنا فإن التحديد الفلسفي للعقلانية في سياق نظرية المعرفة يميز بين مدلولين اثنين: الأول يتمثل في النزوع العقلاني الإطلاقي الذي يعدّ العقل مصدراً وحيداً للمعرفة، والثاني هو التوجه الفكري الذي يعتد بالعقل بوصفه مصدراً أول للمعرفة، دون أن ينفي غيره من المصادر [3]، وفي هذا السياق يمكن أن نحدّ العقلانية بكونها توجهاً معرفياً يعتقد بأولوية العقل؛ ثم تتفرع بعد ذلك إلى توجهات فلسفية متباينة ومختلفة، يمكن أن نختزلها في توجهين رئيسين هما: اتجاه يعترف بوجود مصادر أخرى للمعرفة وإن أعطى للعقل مرتبة أولى. ومن هنا تصبح الأولوية بمعنى إبستمولوجي ينحصر في ترتيب مصادر المعرفة. واتجاه ينكر أن يكون ثمة مرجعاً أو مصدراً معرفياً غير العقل.

يستخدم مصطلح العقلانية في نظرية المعرفة للدلالة على المذهب الذي يرى أن المعرفة اليقينية لابد أن تكون أولاً: كلية، بحيث تشمل القضية جميع الحالات الجزئية. وثانياً: ضرورية بحيث تلزم النتائج عن المقدمات لزوماً ضرورياً، والكلية والضرورة هما بحسب كانط «**بمثابة شروط ضرورية للمعرفة**»[4] وترى العقلانية الفلسفية أن الكلية والضرورة كصفتين منطقيتين للمعرفة الحقة لا يمكن أن تستنتجان من التجربة فقط، وأن عموميتهما تستنتج من العقل نفسه: أما من التصورات المفطورة في العقل مثل نظرية الأفكار الفكرية عند ديكارت؛ أو من التصورات الموجودة فقط في الاستعدادات القبلية للعقل التي تمارس التجربة تأثيرها المنبه على ظهورها. لكن سمة الكلية المطلقة، والضرورة المطلة، تعطى لها من قبل التجريب الواقعي كما عند كانط [5]. وبهذا المعنى تقف العقلانية كفلسفة وكمنهج في

---

[1] انظر: لويس، جنفياف روديس، ديكارت والعقلانية، ترجمة عبده الحلو، منشورات عويدات، بيروت، ط4، 1988، ص 19.

[2] انظر: لويس، جنفياف روديس، ديكارت والعقلانية، مرجع سابق، ص 10-11 من المدخل.

[3] انظر: الشنيطي، محمد فتحي، المعرفة، دار الثقافة، القاهرة، ط6، 1981، ص58-59.

[4] زكريا، إبراهيم، كانط أو الفلسفة النقدية، مكتبة مصر، القاهرة، د.ت، ص 63.

[5] زكريا، إبراهيم، كانط أو الفلسفة النقدية، مرجع سابق، ص 65.

مواجهة التجريبية التي ترى أن المعرفة اليقينية تنبع من التجربة لا من العقل. وهكذا تميز العقلانية من كونها تنكر قضية أن الكلية والضرورة تنشآن من التجربة.

أما عن العلاقة بين التجريبية والعقلانية. فنقرأ في الموسوعة الفلسفية The Encyclopedia Of Philosophy وتحت مادة Rationalism ما يلي: المذهب العقلي لفظ مشتق من اللاتينية Ratio أي العقل، وهو وجهة نظر فلسفية أو برنامج يؤكد قدرة العقل القبلية على إدراك الحقائق الأساسية عن العالم. والفلسفات التي تندرج تحت هذا المعنى العام ظهرت في أزمنة متعددة، ولكن النشاط العقلاني يتزامن مع فلاسفة القرن السابع عشر والثامن عشر، والبداية كانت مع ديكارت وسبينوزا وليبنتز[1] يتناول هذا التعريف المذهب العقلي أي الجانب الإبستمولوجي في العقلانية وهو يقف في تضاد مع التجريبية أو المذهب التجريبي، وإذا كان المذهب العقلي قد بدأ في القرن السابع عشر مع ديكارت في فرنسا، فإن المذهب التجريبي ولد في نفس الوقت ولكن في إنكلترا. وإذا كنا سنعقد حواراً بينهما بهدف الكشف عن منهج كل منهما فلا بد أن يكون معلوماً أن هذا الحوار هو حوار معرفي صرف، فالتجريبية هي إطروحة في المعرفة البشرية، والزعم الجوهري لها هو أن المعرفة البشرية كلها مستمدة من التجربة الحسية، في حين يشجب العقلانيون الحواس باعتبارها مجالاً للشبهة، وأساسا غير جديرة بالثقة [2]، ويرون إن معيار الحقيقة ليس حسياً بل عقلياً واستنباطياً، والرياضيات هي ملهمة مذهبهم، ولذلك يباهي العقليون بسمو المنهج الاستنباطي ويعتبرونه منهج اليقين، ولهذا السبب كانت المعرفة عندهم كلية وضرورية [3].

في مقابل العقلانية المذهبية، برزت المدرسة التجريبية بوصفها مثالاً على العقلانية المنهجية. هذه المدرسة تأثرت بتطور العلوم في وقتها، وأبرز روادها بيكون وهوبز ولوك وبيركلي وهيوم. يرى جون لوك -خلافا لديكارت- أن العقل لا يحتوي على أية حقائق يقينية أو أفكار فطرية، بل هو صفحة بيضاء تكتب فيها التجربة بقلم الحواس كل المعارف المكتسبة. لكن العقل عند لوك ليس مجرد صندوق فارغ بل فيه نوع من القدرة والاستعداد للاشتغال على المعطيات الحسية التي تصل إليه من العالم الخارجي فيرتبها وينظمها على شكل أحكام علمية [4]. وبهذا فإن الموقف العقلي القائل بكون العقل مصدراً وحيداً للمعرفة، ومقابله أي الموقف التجريبي القائل بكون الحواس هي المصدر الوحيد؛ سيتعرضان لنقد صارم خلال تطور الفكر الفلسفي والعلمي كشف عن اختلالهما. وما الفلسفة الكانطية إلا علامة على مراجعة مزدوجة للعقلانية والتجريبية معا، وتوكيد على ضرورة الوصل بين العقل والحس، حيث انتقد كانط الوثوقية الديكارتية والفلسفة التجريبية على حد سواء، مؤكدا أن المعرفة حصيلة بناء يشترك في إنجازه الفهم بمقولاته القبلية والحس بإطاريه القبليين المتمثلين في المكان والزمان [5].

وبالعودة إلى تمييزنا الأول لدلالة العقلانية بين اتجاه يقر بأولية العقل، واتجاه يقر بأحاديته، وبعد مناقشة كلا المذهبين نجد أنه من الصعب اعتبار العقلانية مذهباً متجانساً وموحداً في المبدأ والتفاصيل. ومن ثم فإن من الخطأ الانسياق وراء حكم تعميمي واحد. وإنما نجد أن من الأجدر القول بأن العقلانية تلوينات معرفية وفلسفية عديدة. ومن ثم فالحكم عليها بحكم إجمالي عام هو انزلاق في مزلق التعميم المخل.

---

[1] The Encyclopedia Of Philosophy، Ed، Paul Fdwards، Macmillan pulishing Co. New York< Volumes 7،p.69.

[2] كوتنغهام، جون، العقلانية فلسفة متجددة، ص 17.

[3] انظر: إمام، إمام عبد الفتاح، هوبز فيلسوف العقلانية، دار التنوير، بيروت، 1985، ص 12.

[4] انظر: كرم، يوسف، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار المعارف، القاهرة، ط5، 1986، ص 144.

[5] انظر: زكريا، إبراهيم، كانط أو الفلسفة النقدية، مرجع سابق، ص 78- 79.

المعرفة عند العقلانيين على اختلاف مذاهبهم هي من فعل العقل، وأما الأشياء المحسوسة والإحساسات فهي لا تشكل سوى جزء من علمية المعرفة، أما المعرفة عند التجريبيين فهي مشتقة من الحواس. عند العقليين العقل كائن موجود بالفعل وفاعل باستقلال عن الحس والتجربة الحسية وهو يشكل شرطاً جوهرياً مبدئياً لكل معرفة أما عند التجريبيين فالذهن لوح فارغ يملأ بإحساسات التي تردنا بواسطة الحواس، ويتضح مما سبق أن الاختلافات بين المذهبين هي خلافات منهجية ولكن كلا المذهبين يرجع الى الإنسان أحدهما الى العقل والآخر الى الحواس ويتفق المذهبان حول محايثة المعرفة ويرفضان المعرفة المتعالية، وبالتالي فالإنسان هو المرجعية في كلا المذهبين، وبهذا فإن المذهب العقلي والمذهب التجريبي ينتميان معا الى العقلانية لأن الأثنين معا ينتميان الى أيديولوجيا الحداثة.

ثالثاً– العقلانية في المعرفة العلمية:

استطاعت العقلانية على المستوى الفكري تفكيك التصورات اللاهوتية للعالم عندما أحلت العلة الفاعلة محل العلة الغائية، بحيث أصبحت «**الربطة بين العلة والمعلول سمة كامنة في طبيعة الأشياء**» [1]. وبهذا فقد تبنت العقلانية الموقف العلمي القائل بأن العالم محكوم بقوانين يمكن فهمها والكشف عنها وليس هناك من قوى غيبية أو مفارقة قادرة على التدخل بين الحين والآخر للتأثير على مجريات الأحداث في العالم. كذلك على المستوى العلمي، حلّ المنهج الرياضي كمنهج وحيد لفهم العالم بمختلف ظواهره الطبيعية. وقد كان لتأكيد العقلانية على العقل ودوره في بناء المعرفة من جهة وتأكيدها على أن العالم مجموعة من الترابطات السببية القبلة للفهم والتفسير من جهة أخرى، دور كبير في انتشار الثقة بقدرة الإنسان على فهم الطبيعة، مما أفسح المجال لنشوء وتقدم العلوم الطبيعية وبالتالي دفع عجلة التطور العلمي في شتى المجالات، وهذا ما أكدة صاحب كتاب تشكل العقل الحديث بقوله: «**تنزع العقلانية إلى إسقاط كل ما هو خارق للطبيعة أو غيبي من الكون وأبقت فقط على الطبيعي الذي يؤمن المفكر العقلاني أنه قابل للفهم في النهاية وأن سبيلنا إلى فهمه في الغالب الأعم الوسائل التي يعرفها أكثرنا باسم مناهج البحث العلمي**»[2].

نتج عن ذلك كله ما سُمي بالثورة العلمية التي أكدت على ضرورة تحقيق سيطرة الإنسان على الطبيعة وهي قد سعت جاهدة لتحقيق هذه السيطرة من خلال البحث عن قوانين ثابتة في الطبيعة، من خلال تأكيدها على أن العالم يخضع لجملة من الأسباب التي إذا تمكنا من اكتشافها استطعنا بسهولة فهم جميع الظواهر بعيداً عن العلل الغائية التي كان العلم الأرسطي قد أكد عليها، خصوصاً وأن فكرة الغائية هذه كانت قد لقيت الترحيب من قبل الفكر المسيحي في القرون الوسطى.

ومع التمييز الذي احدثه ديكارت بين المادة والفكر، وضعت المعرفة العلمية نفسها في مقابل المعرفة الفلسفية، واختص كل منهما بمنهج خاص، بحيث اصبحت الفلسفة تقوم على المنهج التأملي في حين قام العلم على المذهب التجريبي الذي كان نتاجاً مباشراً للسجال الفكري الذي ذكرناه سابقا بين العقليين والتجريبيين في مجال نظرية المعرفة. إلا أن التطورات والكشوفات المتسارعة في مجال المعرفة العلمية الوليدة أدت إلى الثقة المفرطة في العقل، وبذلك نشأت دلالة جديدة لمصطلح العقلانية، من خلال اقتران العقلانية بالعلم، وقد تعزز هذا الاقتران خصوصاً بعد انتقال اهتمام العقل الحديث من نظرية المعرفة الى الأبستمولوجيا، فأصبحت العقلانية العلمية تدعي كونها الحل النهائي والحاسم

---

[1] رسل، برتراند، حكمة الغرب، ترجمة فؤاد زكريا، المجلس الوطني للثقافة والفنون الآداب، الكويت، ضمن سلسلة عالم المعرفة، العدد 72، 1983، الجزء الثاني، ص 102.

[2] برينتون، كرين، تشكيل العقل الحديث، ترجمة شوقي جلال، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ضمن سلسلة عالم المعرفة، العدد 82، 1984، ص120.

لمسألة المعرفة التي تقوم عليها. ويعود ذلك برأينا إلى الفارق الكبير بين سرعة تطور العلم الحديث، وبطء تطور الفكر الفلسفي. ومن هنا كان التراجع الذي شهدته معظم نظريات المعرفة لتصبح في المرتبة الثانية أمام المعرفة العلمية التي تعتمد على شهادة الحواس بالدرجة الأولى. وبذلك تنازلت الفلسفة عن كثير من كبريائها في مواجهة طفرة العلم الحديث.

ومن زاوية أخرى فإن النشاط المعرفي في مجال العلم، بعد أن استقل وتميز عن أشكال المعرفة الأخرى، ونتيجة للمبالغة في عقلانيته، أدى إلى نشوء ما يسمى العقلانية الأداتية، بمعنى إخضاع كل شيء لقدرة العقل التي هي بحث دؤوب عن الأسباب والعلل، ومن ثمة الارتباط الحميم لمبدأ السبب أو العلة بمبدأ العقل. وهذا المبدأ عبر عنه لأول مرة ليبنتز في الصيغة التي تقول لا شيء بدون علة [1]. وبفضله يصبح كل من الواقع الطبيعي والواقع التاريخي معقولاً أو عقلانياً، أو قابلا للتفسير، بالنسبة للذات. هكذا يصبح كل شيء مفحوصاً ومفهوماً بل ومحكوماً من طرف العقل. وعبره يتحقق الإنسان من سيادته النظرية على العالم الذي يغدو شفافاً وخالياً من الأسرار، وهذا ما عبر عنه برينتون بالقول: العقلانية «**مجموعة من الأفكار التي تفضي إلى الاعتقاد بأن الكون يعمل على نحو ما يعمل العقل حين يفكر بصورة منطقية وموضوعية**»[2].

إذن كان من نتيجة سيادة العقلانية العلمية على مناحي الفكر المختلفة في العصر الحديث ظهور ما يسمى بالعقلانية الأداتية، أو العقلانية التكنولوجية، والعقل الأداتي ترجمة للمصطلح الإنجليزي instrumental reason ويُقال له أيضاً العقل الذاتي أو التقني أو الشكلي. وهو على علاقة بمصطلحات مثل العقلانية التكنولوجية أو التكنوقراطية ويقف على الطرف النقيض من العقل النقدي او الموضوعي في مقابل العقل الأداتي أو العقل الجزئي أو العقل الذاتي [3]. وعلى ذلك تصبح العقلانية الحداثية هي عقلانية ما قبل التكنولوجيا، والتي كانت توجهها جملة من المبادئ أبرزها مبدأ السيطرة، أي سيطرة الإنسان على الطبيعة، أما العقلانية التكنولوجية والتي امتداداً مباشراً لها، فقد حركتها أيضا مبادئ السيطرة لكنها توسعت أكثر لتشمل سيطرة الإنسان، ليس بمعنى سيطرة الإنسان على الطبيعة فحسب؛ بل أيضا سيطرة النزعة العقلية على الإنسان، وبهذا فإن العقلانية الأداتية سيطرت على الطبيعة عبر السيطرة على الإنسان، وسيطرت على هذا الأخير عبر السيطرة على الطبيعة بواسطة التقنية. وبهذا المعنى فإن انتماء فيلسوف الى العقلانية لا يتحدد فقط بناءاً على نظريته في المعرفة لأن الموقف العقلاني أكبر وأعم من الموقف الأبستمولوجي.

رابعاً-العقلانية في المعرفة الدينية:

نقرأ في الموسوعة البريطانية تحت مادة Rationlism ما يلي: في الفلسفة منهج في الفهم يتخذ من العقل الأصل الرئيسي في المعرفة، وهو في اختلاف مع المذهب التجريبي ويقوم معارضاً للتجربة الحسية، وعادة ما يستخدم المذهب العقلي الرياضيات كمنهج، ويؤكد العقلانيون على رفع الاستنباط فوق المناهج الأخرى، أما على الصعيد الديني فيتم استبدال وحي ما فوق الطبيعة بالعقل. فالعقل هنا في تضاد مع الوحي أو سلطة النص وتقوم الطبيعة كمعارض للوحي الديني [4]. من الواضح أن العقلانية كما هو مبين في النص السابق تتجاوز المعنى الأبستمولوجي لها أو التقني، فالعقلانية موقف من العالم أو هي قراءة للعالم يكون فيها العقل شرطاً لازماً ولكنه غير كافٍ. العقلانية إذاً هي قراءة للعالم وهي تنتصب أولاً وأخيراً كقراءة مناهضة للقراءة الدينية، وعند هذا المستوى من الحديث نجد أنه لابد من الحديث

---

[1] برينتون، كرين، تشكيل العقل الحديث، ترجمة شوقي جلال، ضمن سلسلة عالم المعرفة، العدد 82، 1984، ص 119.

[2] انظر: كوتنغهام، جون، العقلانية فلسفة متجددة، مرجع سابق، ص 76.

[3] هوندرتش، تد، دليل أكسفورد للفلسفة، مرجع سابق، د.ت، الجزء الثاني، ص 597.

[4] **Jacob E، Safra، James E، Goulka، New Encyclopedia Britannia، Chicago، Fiftenth Edition. 1977،9،P953.**

عن المشروع الحداثي الذي يعتبر العقلانية واحدة من أهم مقولاته، فالحداثة وبالتالي العقلانية هي ذلك المشروع الذي جاء مناهضاً للعصر الوسيط. وكتّاب الحداثة غالباً ما يماهون بين الحداثة والعقلانية وماكس فيبر الذي يعّرف الحداثة بالعقلنة، يرى أن الحداثة والعقلانية تستبعد كل غائية وأن العالم الدنيوي وانقشاع الأوهام والسحر تظهر القطيعة الضرورية مع غائية الفكر الديني الذي ينادي دائما بغاية للتاريخ وبالتحقيق العام لمشروع إلهي أو باختفاء الإنسانية المنحرفة التي خانت رسالتها [1]. وفي مقابل هذا الرأي نجد التحديد السابق ذكره والذي وضعه لالاند يجعل من الدلالة الدينية هي إحدى االدلالات التي يقال بها لفظ العقلانية، وأن شئنا أن نكون أكثر دقة فأن لالاند يحدد استخدام لفظ العقلانية في المجال الديني بقول: «**العقلانية بنحو خاص عند اللاهوتيين مذهب يرى أنه لا يجوز الوثوق إلا بالعقل، ولا يجوز التسليم في المذاهب الدينية إلا بما يعترف به العقل بأنه منطقي وكافٍ ووفقا للنور الطبيعي**» [2].

إذاً على الرغم من أن الدين كان أشد من عارض نمو الفكر العقلاني خلال حقبة العصور الوسطى إلا إنه شارك من جهة أخرى في انتشاره في مطلع عصر النهضة، ويؤكد ذلك أن مصطلح النهضة، هو في الأصل مصطلح ديني إذ كان يعني الشروع ببداية حياة جديدة على قواعد ومعايير جديدة في الحياة الروحية [3]. لكنه تحول فيما بعد من المفهوم اللاهوتي إلى الإنساني، فأصبحت «النهضة» كمصطلح تعني الولادة الجديدة للعقل العلم، ونتج عن ذلك الانصراف الكامل في الفكر والوجود، عن نمط الحياة والتفكر للعصور الوسطى، التي كانت فيها الكنيسة صاحبة السيادة الكاملة في حركة الحياة وتضاعيفها وتفاصيلها الصغيرة والكبيرة، على صعيد حياة الفرد، والمجتمع والسلطة. فالنزعة العقلية الجديدة التي قامت اصلاً كتحد للسلطات الكنسية ونادت بسيادة العقل الميادين السياسية والفكرية والدينية، تحولت إلى أن أصبح مصطلح الحداثة يشير إلى انتصار العقل على اللاهوت وتحول وظيفته اللاهوت إلى أن أصبح مقصوراً على استيعاب ما هو جديد. لكن لا نستطيع القول بأن نمط تفكر العصور الوسطى قد انتهى تماماً أو لم تظل رواسبه في الفكر الأوروبي، ويؤكد ذلك أن رائد العقلانية ديكارت ظل محافظاً على احترامه الشديد لرجال اللاهوت المسيحي، كما ظل مهتماً بقضايا ميتافيزيقية، ومسائل من قبيل وجود الله، وخلود النفس، وهي من بقايا تفكير العصور الوسطى المسيحية، التقليدي[4]. ولهذا فإننا نعتقد إن مشروع الحداثة الذي أطاح تماما بالمقدس الذي ساد المجتمع القديم وكان عنصراً من عناصر تماسكه، جعل من العقل بديلاً لهذا التماسك المفقود، وذلك عندما حلت سلطة العقل مكان سلطة المقدس. إلا أن ذلك قد تم له عرضاً أثناء محاولته أن يبني ميتافيزيقاه على العقل، أو أن يعقلن الدين، ولهذا يمكن أن نطلق على المشروع النهضوي في بدايته اسم "العقلانية الدينية"، ويشير كرين برينتون إلى ذلك بالقول: «**تعتبر النزعة العقلانية بالصورة التي نمت بها خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر في الغرب نسقا ميتافيزيقيا كاملا. بل وأكثر من هذا، أنها كانت ومازلت بالنسبة لقليل من الناس بمثابة البديل للدين. ونظرا لأن النزعة العقلية أخذت بوضعها هذا صورة مذهب شبه ديني، فقد كان من الأفضل وصفها بأسماء محددة مثل المادية والوضعية وما شابه ذلك من تسميات تشير بدقة اكثر إلى مركب كامل من المعتقدات والعادات والتنظيم المتصلة بذلك**» [5]. بل أكثر من هذا، فقد اعتبر العقلانية كل، وتلك المذاهب أجزاء مكونة لهذا الكل، لهذا نجده يقول: «**أن**

---

[1] تورين، آلان، نقد الحداثة، ترجمة صياح الجهيم، وزارة الثقافة، دمشق، 1998، ص 15.

[2] لالاند، أندريه، موسوعة لالاند الفلسفية، ج3، مرجع سابق، ص 1172.

[3] رسل، برتراند، حكمة الغرب، ج2، مرجع سابق، ص 16.

[4] لوبس، جنفياف روديس، ديكارت والعقلانية، مرجع سابق، ص49.

[5] كريتيون، كرين، تشكيل العقل الحديث، ص 121-122.

النزعة العقلانية هي المصطلح العام الشامل، مثل البروتستنتية، وأن المادية والوضعية واللادينية، بل مذاهب التوحيد والتأليه الطبيعي أو الربوبية إنما تمثل كلها أسماء الطوائف التي تندرج تحت ذلك الاسم العام» [1].

وبهذا ومع تقدم عصر النهضة زادت الثقة بالعقل وتحولت العقلانية الميتافيزيقية إلى عقلانية فلسفية، أعلت من دور العقل، ودعت الإنسان للاعتماد على العقل والمنطق أكثر من اعتماده على الإعلان والوحي الإلهي، واعتبرت الفلسفة العقلانية أن اللاهوت الطبيعي (مذهب الربوبية) هو نقطة الانطلاق لفهم الأمور اللاهوتية، فأدى ذلك إلى تحرير العقل من الوصاية الكنسية وتحرير الفكر من المفاهيم اللاهوتية وتأكيد العقل كسلطة مناقضة للنقل، ومن ثم أدى ذلك الى انتقال الفكر الأوربي من الوعي التقليدي الى الوعي الحديث، والانتقال من الرجعية اللاهوتية في الفكر إلى المرجعية الإنسانية أي الى العقلانية.

الخاتمة:

بعد هذا العرض لأبرز المعاني التي يقال بها لفظ العقلانية نصل الى نتيجة منطقية تؤكد أن العقلانية ليست مذهباً متجانساً ولا نمطاً معرفياً محدداً كما أنها ليست فريقاً يضم مجموعة من الأنصار كما الحال في المذاهب الفلسفية، وإنما هي نزعة ومنهج في التفكير ينحو إليه المفكرون والفلاسفة، بل ورجال الدين أيضاً، داخل منظوماتهم ومذاهبهم الفكرية أو الفلسفية مولين العقل مكانة محورية سواء في نظرية المعرفة أو في الفهم العلمي للعالم. ولكن على الرغم من هذا التباين الكبير يمكن أن تعرف العقلانية بكونها توجها معرفيا يعتقد بأولوية العقل ثم تتفرع بعد ذلك الى توجهات فلسفية متباينة ومختلفة، ويمكن أن نوجزها في توجهين رئيسيين، هما: اتجاه يعترف بوجود مصادر أخرى للمعرفة وإن أعطى العقل مرتبة أولى، وهنا تأخذ الأولوية معنى ابستمولوجي ينحصر في تركيب مصادر المعرفة، واتجاه ينكر أن يكون ثمة مرجع أو مصدر معرفي آخر غير العقل ، فتصير الأولوية عنده أحادية. وبالتالي لابد من تحديد معنى العقلانية المقصود بحسب طبيعة المجال الذي تستخدم به سواء في مجال نظرية المعرفة أو العلم أو الدين.

---

[1] كريتيون، كرين، تشكيل العقل الحديث، ص 122.

المصادر والمراجع:

1- إمام، إمام عبد الفتاح، هوبز فيلسوف العقلانية، دار التنوير، بيروت، 1985.

2- برينتون، كرين، تشكيل العقل الحديث، ترجمة شوقي جلال، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ضمن سلسلة عالم المعرفة، العدد 82، 1984.

3- تورين، آلان، نقد الحداثة، ترجمة صياح الجهيم، وزارة الثقافة، دمشق، 1998.

4- رسل، برتراند، حكمة الغرب، ترجمة فؤاد زكريا، المجلس الوطني للثقافة والفنون الآداب، الكويت، ضمن سلسلة عالم المعرفة، العدد 72، 1983.

5- زكريا، إبراهيم، كانط أو الفلسفة النقدية، مكتبة مصر، القاهرة، د.ت.

6- زيادة، معن ومجموعة من المؤلفين، الموسوعة الفلسفية العربية، معهد الإنماء العربي، بيروت، 1988.

7- الشنيطي، محمد فتحي، المعرفة، دار الثقافة، القاهرة، ط6، 1981.

8- صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982.

9- كرم، يوسف، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار المعارف، القاهرة، ط5، 1986.

10- كريستون، اندريه، تيارات الفكر الفلسفي من القرون الوسطى حتى العصر الحديث، ترجمة نهاد رضا، منشورات عويدات، بيروت، ط2، 1982.

11- كوتنغهام، جون، العقلانية فلسفة متجددة، ترجمة محمود منقذ الهاشمي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، 1993.

12- لالاند، أندريه، موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، ط2، 2001.

13- لوبس، جنفياف روديس، ديكارت والعقلانية، ترجمة عبده الحلو، منشورات عويدات، بيروت، ط4، 1988،

14- الموسوعة الفلسفية المختصرة ، ترجمة فؤاد كامل وآخرون ، دار القلم بيروت ، لبنان ، د ت.

15- هوندرتش، تد، دليل أكسفورد للفلسفة، ترجمة نجيب الحصادي، المكتب الوطني للبحث والتطوتر، ليبيا، د.ت.

16- The Encyclopedia Of Philosophy، Ed، Paul Fdwards، Macmillan pulishing Co. New York، Volumes 7،p.69.

17- Jacob E، Safra، James E، Goulka، New Encyclopedia Britannia، Chicago، Fiftenth Edition. 1977،9،P953.